

أثر الهجرة في النمو السكاني بمدينة وجدة

خلال القرن العشرين

المصطفى اليزيدي

Al Mostafa EL YAZIDI

Résumé

Cet article vise à démontrer le développement de la population d'Oujda en rapport avec l'immigration étrangère et nationale au XX^{ème} siècle.

Summary

This paper aims at demonstrating the population development of oujda in connection with foreign and national immigrants in 20th.

أنجزت بحوث وأعمال كثيرة حول الهجرة وتعرضت لإشكالياتها دون أن تصل إلى الميكانيزمات المحددة لها أو القوانين المتحركة فيها، فقد اقتصر في تصنيفها على البعد الجغرافي أحيانا وأحيانا على البعد الزمني دون أن تبلغ مستوى من التنظير. وإذا كانت بعض المجتمعات حاليا تتكلم عن علم الهجرة ، فذلك يأتي بسبب ما أصبحت تطرحه الظاهرة من مشاكل معقدة ، فإذا كانت خارجية تطرح مشاكل اللغة والمعتقدات ونمط العيش ، بما في ذلك إشكالية الاندماج ، أما إذا كانت داخلية فتطرح مشاكل العمل والسكن والتوزيع السكاني وكذا مشاكل المدينة من جهة والريف من جهة أخرى.

وتختلف الإشكاليات حول مدلول الهجرة ، فهناك من ينظر إليها كظاهرة

طبيعية⁽¹⁾ تزامنت مع الوجود البشري ، وهناك من ينظر إليها كظاهرة اجتماعية ترتبط بتحسين ظروف العيش ، إلا أن هناك من يعطيها تصنيفا آخر محاولا الجمع بين العنصرين فتكون الهجرة إما اضطرارية تفرضها ظروف ومعطيات طارئة أو تكون استراتيجية تفرضها طموحات الفرد والرغبة في تحسين وضعيته. وقد شهدت الظاهرة دراسات وأبحاث عدة لكنها ظلت في معظمها فردية أو تمت في إطار مشاريع كان الهدف منها توفير المعلومات أكثر من هاجس البحث عن خباياها ومحدداتها . وتأتي صعوبة البحث في هذا المجال من كون الظاهرة اجتماعية لازمت الإنسانية منذ فجر التاريخ وستظل تلازمه ، بل وتتعد مع تطور المجتمعات، فهي ظاهرة كونية مستمرة مهما اختلفت ملابسها وحيثياتها. ومحاولتنا هذه لا يمكن إدراجها ضمن الدراسات المختصة بقدر ما هي محاولة لرفع الالتباس عنها في هذه المدينة التي تشكو من قلة الدراسات ، فهي محاولة الهدف منها وضع إطار بسيط لهذه الظاهرة وسد جزء من الفراغ الذي تشهده المدينة.

1- وتيرة النمو السكاني بالمدينة

لم ترق مدينة وجدة إلى مستوى المدن المغربية الأخرى من حيث عدد السكان بالرغم من بعدها التاريخي ، ويعزى هذا إلى صعوبات الاستقرار والأمن التي شهدتها ، فقد تعرضت للهدم وإعادة البناء أربع مرات لاسيما في عصر المرابطين والمرينيين ، ويعتبر ما وصلنا من إحصائيات وتقديرات عن مدينة وجدة عبر تاريخها ، خاصة من لدن الأوروبيين ، غير دقيق بحكم الهدف المتوخى منها من جهة وبحكم تضاربها من جهة ثانية . فهذا أحد الجواسيس الإسبان يقدر العدد سنة 1805 ب 500 نسمة في حين يقدر العقيد الإنجليزي سكوت SCOTT العدد سنة 1841 ب 10000 نسمة ، أما المارشال BUGEAUD فقد قدر العدد عندما نزل بها 1944 ما بين 4.000 و 5.000 نسمة⁽²⁾. وتظل هذه التقديرات غير دقيقة مهما أعطينا من تفسيرات أو مبررات مثل عدم الاستقرار أو انتشار الطاعون والأوبئة خاصة وأن الأرقام متضاربة في نفس الفترة. وأمام هذا الخلل ، تبقى الأقرب للواقع هي التي

¹ LEWIS G. L. : Human migration - S. T. Martin's press, New york, 1982, p.8.

² - محمد منقعة : " قراءة في بعض الكتابات عن ساكنة وجدة خلال القرن التاسع عشر. " مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة ، العدد 6 ، 1996 ، صص. 105-117 .

أثر الهجرة في النمو السكاني بمدينة وجدة خلال القرن العشرين

تعود بنا إلى بداية القرن إذ لم يكن يتجاوز العدد 1907 - 6.500 نسمة، ومع دخول المعمر ستبدأ الإحصائيات في تدقيق الخصائص الديمغرافية للسكان لكن الأهم من هذا هو كون المدينة ستشهد انطلاقة جديدة سيد شنها أولا دخول الأجانب ثم فيما بعد المغاربة.

1.1 - ارتفاع إيقاع النمو مع دخول المعمر

عرفت المدينة نموا سريعا منذ بداية القرن واستمر إلى الفترة الحالية، ويتجلى أساسا في كون المدينة انتقلت من صنف المدن الصغرى، في بداية القرن، إلى صف المدن الكبرى حاليا مما يبين أن نموها كان أسرع من كثير من المدن، بل أصبحت ضمن العشر الأوائل في الشبكة الوطنية، وقد انتقل العدد من 6.829 نسمة 1910 إلى 35.7227 سنة 1994، أي أنه تضاعف ب 55 مرة خلال تسعة عقود، إلا أن وتيرة النمو لم تكن متجانسة، فقد تميزت في فترات بسرعتها وفي أخرى ببطئها. والجدول التالي يعطينا صورة عن صيرورة النمو منذ دخول المعمر.

النمو السكاني لمدينة وجدة⁽³⁾

السنة	السكان	النمو الإجمالي	نسبة النمو السنو
1910	6.829	/	/
1926	19.970	13.141	6.93
1931	34.523	5.086	3.23
1936	43.729	9.467	8.07
1952	80.718	46.195	5.45
1960	128.700	47.982	6.0
1971	175.500	46.800	2.9
1982	260.082	84.582	3.6
1994	357.278	97.196	2.7

³ KATIN Y. : *Oujda une ville frontière du Maroc : 1907-1956*. éd. La porte, 1993, p. -

138.

C.E.R.D. : *Situation démographique régionale au Maroc*. 1988..

عرفت المدينة نموا سريعا حيث يقدر المتوسط ب 4.7 % إلا أهم نسبة سجلتها خلال النصف الأول من عقد الثلاثينات 8.1 %، وذلك ما بين 1931 و 1936، في حين كانت أضعف نسبة هي التي سجلتها في العقد الأخير ما بين 1982 و 1994 ب 2.7% سنويا، هذا على مستوى النسب، أما على مستوى الأعداد المطلقة فنلاحظ العكس، إذ إن أهم عدد سجلته المدينة كان خلال العقد الأخير ب 97.196 فردا، بينما كانت أضعفها في البداية ما بين 1910 و 1926 ب 13.141 فرد فقط، لكن في جميع الحالات يجب أن نفحص نسبة النمو وكذا العدد المطلق لأن لهما علاقة وطيدة بالهجرة، و الفائض عن النمو الطبيعي ناتج عن الهجرة .

إن نسبة النمو تنقلص مع ارتفاع عدد السكان لكن الملاحظة الأساسية هو كونها لم تنخفض إلى مستوى نسبة النمو الطبيعي، مما يترك للهجرة دورا في النمو السكاني للمدينة، فعلى سبيل المثال كانت نسبة النمو الطبيعي في عقد السبعينات 2.3 % سنويا بينما كانت نسبة النمو العامة 3.6% مما يترك هامشا لمعرفة دور الهجرة في عملية النمو حيث مثلت 33.3%. وهذا النمو لا يجب أن ينسب كذلك في اتساع المدار الحضري للمدينة حيث تم إدماج بعض الأحياء أو القرى الهامشية ضمن المدينة كما هو الشأن بالنسبة لسدي يحيى.

1-2 تميزت المدينة باستمرارية نموها السكاني

لقد اختلفت مدينة وجدة عن باقي المدن المغربية القديمة في كونها لم تعان نفس الأزمات التي عانتها من جراء تدخل المعمر، فقد كان من أولى نتائج دخوله انتقال مركز النقل الاقتصادي إلى الساحل الأطلسي، فتأثرت بذلك المدن الداخلية التي وجدت صعوبة الاندماج في نسق الاقتصاد الحديث واضطربت الشبكة الحضرية التقليدية الداخلية لصالح المحيط الأطلسي، ورافق هذا أن تراجع اقتصاد هذه المدن وتأزمت أنشطتها التقليدية في حين ركزت المشاريع الأجنبية على الساحل خاصة بين مدينة القنيطرة (بور ليوطي) والدار البيضاء، ورافق هذا أن زادت مدينة وجدة بعدا عن أهم المدن الاقتصادية مما كان له انعكاس على تزايد إشعاع المدينة الهجري، كما أن موقع المدينة على مشارف الحدود الجزائرية شجع عددا ضخما من الجزائريين على التوافد إليها، وبمقابل هذا شهدت إنجاز مشاريع هامة مما جعلها تتنافس مدينة الدار البيضاء نفسها من حيث نسب النمو، وبذلك تجاوزت الكثير من المدن التي كانت في مستواها إبان دخول الاستعمار مثل القصر الكبير والصويرة والشاون وغيرها، بل وأضحت تتنافس المدن التقليدية الكبرى مثل مكناس وفاس وطنجة وتطوان.

كانت المدينة قد عرفت نموا هائلا في فترة الحماية حيث انتقل العدد من 6.500 سنة 1907 إلى 80.718 سنة 1952 ، و تظهر أهميته كذلك على مستوى النسب ، إذ إن الأهم من هذا هو أن مرحلة الحماية أعطت للمدينة انطلاقة سكانية ستترجم فيما بعد بتضخم التيار الهجري الوطني الذي استطاع أن يعوض العجز الذي شهدته المدينة على إثر مغادرة الأوروبيين والجزائريين فيما بعد ثم اليهود أخيرا، ورغم هذا تضاعف العدد ما بين 1960 و 1994 بمرتين حيث تطور من 128.700 إلى 357.278، مما يوضح أن المدينة حافظت على وتيرة نموها السكاني. وخلافا للمدن الأخرى لم تعرف أزمة سكانية فعلية مما جعلها تقفز من المراتب الأخيرة ضمن الجهاز الحضري إلى المراتب العشر الأوائل حاليا، وإذا كان هذا النمو يرتبط بالتكاثر الطبيعي والهجرة خاصة الريفية منها، فإن هذا العنصر الأخير تتجلى انعكاساته أكثر على المدينة حيث تعزى إليه معظم المشاكل التي تتخبط فيها.

2 - الهجرة الأجنبية و نمو ساكنة المدينة

شكلت الهجرة عنصرا إلى جانب عناصر أخرى لتزيد من تضخم سكان المدن، ويظهر ثقلها بشكل واضح في المدن الكبرى لما لها من انعكاسات اقتصادية واجتماعية على سيرها. ومدينة وجدة إحدى المدن المغربية الكبرى التي تحملت ثقل هذا العنصر رغم تواجدها في الهامش وفي منطقة ذات مؤهلات محدودة، يضاف إليها كون المدينة تقع في مجال عانى دوما من قلة المراكز الحضرية، فشكلت المدينة قبلة لنازحين قدموا من مختلف أرجاء البلاد وخاصة الأقاليم الشرقية والجنوبية. والمتتبع لصيرورة هذه الظاهرة يكتشف أهميتها من حيث العدد، ومن حيث الحجم ومن حيث الإشعاع، بل يمكن أن يتلمس انعكاساتها على المدينة من خلال بعض المؤشرات كالبنيات العمرية والفئات النشيطة وحجم هذه الأسر وكذا التنظيم الحضري للمدينة.

تميزت الهجرة إلى وجدة بتنوع أصولها، أجنبية ووطنية، جزائرية وأوروبية، حضرية وريفية ، وبتنوع معتقداتها، مسلمون ومسيحيون إضافة إلى العنصر اليهودي المتواجد بها، ناهيك عن التباينات المحلية الناتجة عن الاختلاف في اللغة وفي نمط العيش، هذا أعطى في نهاية المطاف بنية سكانية معقدة انعكست على أنشطة السكان من جهة وبنية المدينة من جهة أخرى والعلاقات الاجتماعية من جهة ثالثة. إلا أن الملاحظة الأساسية التي يجب الاحتفاظ بها هو أن هذا الخليط لم يستمر، إذ سرعان ما أفرغت المدينة من العناصر الأجنبية وكذا المجموعة اليهودية ليظل العنصر المغربي المسلم هو الذي يهيكل المدينة حاليا.

2. 1- تميزت الهجرة إلى وجدة في مراحلها الأولى بطغيان العنصر الأجنبي إذا كان عدد سكان المدينة في بداية القرن لا يرقى لمستوى المدن الأخرى فإن الانطلاقة التي شهدتها مع تدخل المعمر ستجعلها تتجاوز الكثير من المدن إلى درجة أن وتيرة نموها كانت شبيهة بالدار البيضاء، وهذه الانطلاقة مردها أساساً إلى الهجرة الأجنبية في الدرجة الأولى ثم الهجرة الجهوية والوطنية بعد ذلك. ففي بداية القرن كانت هناك مجموعة جزائرية أضيفت إلى السكان المحليين مسلمين ويهود، ستتوافد عليها فيما بعد جالية أوروبية استقرت في البداية داخل أسوار المدينة قبل أن تخطط لنفسها الحي الأوروبي، وهكذا عندما نتتبع تطور عددهم نجده سار على المنوال التالي:

تطور عدد الأجانب بوجدة خلال الحماية⁽⁴⁾

السنة	جزائريون	فرنسيون وآخرون	المجموع	% داخل المدينة
1910	1.377	363	1.740	25.5
1926	2.471	6.303	8.774	43.9
1931	3.338	11.045	14.383	48.9
1936	4.594	10.683	15.277	44.3
1952	12.986	14.375	27.361	33.9

يوضح الجدول أهمية الأجانب من حيث العدد والنسبة، ويرتبط تطوره بـ بدخول المعمر حيث وصلت النسبة أوجها في الثلاثينات ثم بدأت في الانخفاض تدريجياً، وقد تطورت من 25.5 % في 1910 إلى 48.9 % سنة 1936 ثم بدأت في التراجع لتمثل ثلث سكان المدينة خلال إحصاء 1952، فباستثناء مدينة أحفير التي تجاوز فيها العنصر الأجنبي نصف سكان المدينة، لا نجد مدينة أخرى بالجهة الشرقية، مثل وجدة، وصلت فيها النسبة إلى 48.9 %، وقد وصل عدد الأجانب 27321 فرد، وهذا العدد رهين بعدة عناصر منها كون المدينة شكلت ملجأ للعنصر الجزائري خلال القرن 19 وخاصة أثناء حرب التحرير، ولم يبدأ في التراجع إلا مؤخراً بعد تحرير الجزائر في حين يرتبط تواجد العنصر الأوروبي وخاصة الفرنسي منه بعدة عوامل.

⁴ KATAN: op. Cit., p. 138. -

*** - عوامل ترتبط بسياسة المعمر نفسها:**

- فالمدينة شكلت مركزا للمنطقة المدنية التي أقرها المعمر.
- مركز عسكري هام يشع نفوذه على مختلف أجزاء المغرب الشرقي.
- مدينة تتوسط مجالا شكل عبر تاريخه منطقة عدم استقرار بالنسبة للسلطة المخزنية.
- مدينة استراتيجية بالنسبة لضبط ومراقبة القبائل المتنقلة عبر الهضاب العليا.
- مدينة حدودية بالنسبة للتراب الجزائري من جهة وبالنسبة كذلك للمنطقة الخليفة التي كانت تحت قبضة الإسبان.

*** - عوامل ترتبط باقتصاد المنطقة، ذلك أن اكتشاف المواد الأولية بها واستخراجها بل وتصديرها كان لا بد أن يمر عبر وجدة حيث أصبحت تلعب دورا تجاريا هاما بينها وبين الغرب الجزائري الذي يتم عبره تصدير مختلف منتجات المنطقة من مواد أولية مثل الرصاص والحلفاء وغيرها، وبذلك شكلت مركز جلب الأجانب واستقرارهم هناك والقيام باستثمارات هامة، لذا وصل عددهم أوجهم في الفترة التي تلت استعمار البلاد نهائيا رافقها فترة الرخاء الاقتصادي الذي شهده العالم مما أثر على البلدان المستعمرة، وازداد نشاط الأجانب بالمدينة بعد انتعاش الاقتصاد وانتهاء الأزمة الاقتصادية العالمية، إلا أن هذا العدد سرعان ما سيبدأ في التقلص مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية.**

2. 2 - لم تقلص هجرة الأجانب واليهود من ساكنة المدينة

ثلاثة أحداث سياسية ستحدث على هجرة الأجانب واليهود، استقلال المغرب أولا، ثم استقلال الجزائر، وأخيرا السماح لليهود بمغادرة التراب الوطني. فهذه الأحداث جعلت عددهم يتقلص تدريجيا ليفقدوا تمثيليتهم ضمن ساكنة المدينة، وهذا ما يفصح عنه الجدول التالي:

تطور عدد الأجانب بوجدة بعد الاستقلال⁽⁵⁾

السنة	الأجانب	نسبتهم داخل المدينة
1960	36.300	28.2
1971	5.900	3.4
1982	4.371	1.7
1994	3.282	0.1

إذا كان عدد الأجانب في المرحلة الأولى من الحماية تزايد بسرعة أكثر من المغاربة، فإنه سيفقد تواجدته تماما في التسعينات، فقد انطلق إفراغهم للمدينة غداة الحرب العالمية الثانية ليزداد مع الاستقلال، ويفصح الجدول عن انخفاض حاد لعددهم بعد 1960، وهذا التراجع السريع ارتبط باستقلال المغرب إذ بدأ الكثير منهم يتخوف على مصالحه، لكن ظلت فئة منهم ذات وظائف تسييرية وتعليمية مستقرة بالمدينة إلى أن بدأت عملية التعريب ومغربة الإدارة، فاضطر الأجانب إلى مغادرتها، وتزامنت هذه الأحداث مع استقلال الجزائر، إذ لم يبق لهؤلاء أي مبرر للمكوث فيها مما أجبرهم على الالتحاق ببلدهم.

ويرافق هذين العاملين عنصر ثالث وهو هجرة اليهود التي ارتبطت بحدث إنشاء "الدولة اليهودية" والسماح لهؤلاء بمغادرة المدينة، فتوجه قسم منهم إلى فلسطين وآخر إلى كندا علما أن المجموعة اليهودية وإن حافظت على عددها منذ بداية القرن، فإن نسبتها بدأت في التراجع بمجرد أن بدأت تتوافد على المدينة الجالية الأجنبية والمهاجرون المغاربة. وإذا كانت مغادرة اليهود لم تؤثر بشكل واضح في تطور ساكنة المدينة فإن انعكاساتها الاقتصادية كانت بليغة حيث ستتراجع بعض الحرف التقليدية، بل وانحى بعضها تماما منها، ويوضح الجدول التطور الذي عرفه هذا العنصر:

⁵ - BELARBI A. : Les quartiers périphériques de la ville d'Oujda. Thèse de. 3è cycle. Université François Rabelais, Tours, 1980, p. 57.

تطور عدد المجموعة اليهودية بوجدة⁽⁶⁾

السنة	اليهود	./ داخل المدينة
1910	1.190	17.4
1926	1.445	7.2
1931	1.890	6.4
1936	2.036	5.9
1952	3.175	3.9
1960	1.800	1.4
1971	150	0.1

كان لوجود العنصر الأجنبي واليهودي كذلك صلة وثيقة بالهجرة المغربية نحو وجدة ، فقد شكلت هذه الفئة مجموعة نشيطة كان لها انعكاس على تطور أنشطة وازدهار المدينة، وارتبطت بمصالحها مجموعة من الخدمات إذ فتحت الكثير من فرص الشغل أمام المغاربة مما شجع هؤلاء على الهجرة خاصة وأن المعطيات المحلية كانت مشجعة على الهجرة. وبعد مغادرة هؤلاء للمدينة تراجع إيقاع النمو، لكن سرعان ما سيتجدد مع تضخم تيار الهجرة الوطنية في السبعينات.

3 - الهجرة الداخلية وانفجار المدينة

على خلاف الأجانب ، انطلقت الهجرة الوطنية مع الحماية لتشتد بعد الاستقلال ولتعرف في العقود الأخيرة تطورا من حيث الأصل والعدد والاتجاه، إلا أن ما يميز هذا التيار هو ارتباطه بأزمة بنيوية تمس المجتمع ولاسيما الريف منه.

3.1 - ارتباط الهجرة المغربية بعوامل محلية وأخرى استعمارية:

إن المتفحص للهجرة المغربية يجد أنها ترتبط في معظمها بالمنطقة الشرقية، وتعزى لتفاعل عدة عوامل حركت التيار، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

إن المجتمع في الهضاب العليا كان مهيا للهجرة بحكم ضعف مؤهلات المنطقة، فتمط العيش الموروث الذي اعتمد على الترحال لم يبق مسايرا للتطور

⁶ - محمد النشوي : " أثر المتغيرات السياسية والاقتصادية على تطور السكان بمدينة وجدة " . ندوة " المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر " ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1986 ، صص. 107-125 .

السكاني، فقد كانت الصراعات القبلية متزامنة يضاف إليها كون النظام القائدي شكل عنصر ضغط على السكان وهياهم للهجرة. ضعف الإمكانيات الفلاحية للمنطقة زاد من تأزمها تحديد المعمر لمجال القبائل مما ضيق الخناق على السكان وأجبرهم على الهجرة. استثمار خيرات المنطقة الممثلة في المواد الأولية مثل الرصاص والحلفاء خلق عدة فرص للشغل في المدن الفتية، فكان ذلك عاملا وراء تحريك اليد العاملة، وبالنسبة لمدينة وجدة، أدى تواجد جالية مهمة بها إلى خلق عدة فرص للعمل كالبنا و توفير الخدمات لهم مما جلب السكان إليها. وبالرغم من صعوبة تكميم الظاهرة في هذه الفترة، فإن الإحصائيات المتوفرة تبين مدى مساهمة الهجرة في النمو السكاني، حيث تعتبر المسؤول الأول عن الانفجار الذي شهدته المدينة. فقد بلغت مساهمة الهجرة في النمو السكاني ما بين 1936 و 1952 - 73%⁽⁷⁾ ولم تترك للنمو الطبيعي سوى 27%، ويدل هذا على قوة حجم التيار من جهة وقدرة المدينة على استيعاب هذا العدد من جهة أخرى علما أن النسبة تجمع بين العنصر المغربي والعنصر الأجنبي. ومما يبرهن على أهمية التيار الداخلي أنه رغم تراجع عدد الأجانب ما بين 1952 و 1960 فالهجرة المغربية مثلت 56% من نسبة النمو. وسيستمر هذا النزوح في العقود التي تلت الاستقلال إلا أنه سيأخذ طابعا آخر.

2.3 - تطور تيار الهجرة الداخلية في العقود الأخيرة

بعد استقلال البلاد ستصبح الهجرة الداخلية إلى جانب النمو الطبيعي هما المسؤولين عن نمو ساكنة المدينة، وقد عرفت الهجرة تطورا من حيث محدداتها وآلياتها كما تعقدت أصولها وتنوعت أشكالها إلا أن دورها في النمو تقلص أمام تشبع المدينة بالسكان من جهة وأمام تطور ظاهرة الهجرة المضادة، وهكذا انخفضت نسبة مساهمتها ما بين 1960 و 1971 إلى 17.3% مع العلم أننا نسجل في نفس الفترة التراجع الهائل للأجانب بالمدينة، وهذا ما أعطى 8.101 فرد كصافي الهجرة، ويظل هذا إيجابيا في حد ذاته أمام قوة التيار المغادر للمدينة، وسرعان ما ينتعش الصافي الهجري خلال عقد السبعينات ليعطينا 28.176 فرد حسب إحصاء 1982، مما مثل 33.3% من نسبة النمو. ويرتبط هذا التطور بعدة عوامل:

كان لتعاقب فترات الجفاف وقع قوي على الهجرة، ويظهر أثر هذا العامل في العلاقة التزامنية لتاريخ الهجرة مع فترات الجفاف. فقد عرف عقد الثمانينات

⁷ - BELARBI A.; op. Cit., p. 58.

عدة سنوات من الجفاف أهمها سجلت في موسم 1980-1981 وموسم 1992 - 1993 ، مع العلم أنه لا يوجد في البلاد مجال عطوب مثل المجال الشرقي المغربي، ومما يركي هذا هو أن المدينة تسجل نسبة هامة من المهاجرين القادمين أساسا من المنطقة الشرقية ، فإشعاعها الهجري مركز بالدرجة الأولى على المجال الشرقي عكس العواصم الجهوية الأخرى التي تعرف إشعاعا وطنيا.

تعاطي الكثير من الشباب للجندية خلال السبعينات إثر استرجاع الصحراء المغربية كان له كذلك أثر في النمو السكاني وتموين تيار الهجرة . فقد شجع هؤلاء أسرهم على الرحيل إلى المدينة ، يضاف إليه الهجرة الخارجية التي يظهر أثرها بارزا في المدينة إما بترك المهاجرين لأفراد أسرهم بالمدينة، وهذه ظاهرة تكاد تتفرد بها مدن الجهة الشرقية، أو بترك بعض الأقارب في مساكنهم مما يشجع ضمينا على الهجرة ، لاسيما إذا توفرت الإقامة.

توافد عدد من المغاربة الذين كانوا مقيمين بالجزائر والذين تجاوز عددهم 20.000، واستقر الكثير منهم بالمدينة بحكم موقعها الحدودي وعلاقاتها السكانية مع الغرب الجزائري.

وبعد الثمانينات ستعرف المدينة تراجعاً في نسبة النمو حيث ستسجل فقط 26.8%، مما يوحي بتراجع حجم التيار، إلا أن هذا التراجع لا يرتبط بالتوافد على المدينة بقدر ما يعزى أساسا إلى الهجرة المضادة المفرغة للمدينة، فنسبة أرباب الأسر المزدادة خارج المدينة جد هامة كما يبرزها الجدول التالي:

مكان ازدياد أرباب الأسر⁽⁸⁾

المزدادون بوجدة	25.5 %
داخل التراب الوطني	68.7 %
خارج التراب الوطني	05.7 %

تبين هذه النسب أهمية أرباب الأسر المزدادين خارج المدينة، وتكاد تمثل 75 % وهي من أعلى النسب على المستوى الوطني، وبالنسبة لجميع السكان نجد 48 % مزدادين خارجها ، وهذا يجعلها تصنف ضمن المدن الأولى في جلب عدد

المهاجرين والتي يشكل فيها هؤلاء ما بين 40 و 70 % من التركيبة الديموغرافية لهذه المدن⁽⁹⁾.

3.3 - الهجرة المضادة تقلص من إيقاع النمو

لا يعزى تراجع نسبة النمو في العقدين الأخيرين فقط إلى تقلص نسبة التزايد الطبيعي أو تراجع الهجرة، وإنما هناك ظاهرة تعيشها المدينة وتعاني منها وهي ظاهرة الهجرة المضادة، وليس هناك "قطب جهوي" مثل مدينة وجدة تعاني من الظاهرة مثلها، ويدل هذا أولاً على صعوبة الاندماج بالمدينة وثانياً على ضعف قدرتها الاستيعابية للسكان. وأمام تواجد العنصر المهاجر بقوة بالمدينة، فالهجرة المضادة كان طبيعياً أن تزج بأبنائها، فالمدينة في إطار علاقاتها السكانية بالمدن الأخرى تسجل عجزاً وبالتالي فهي ترسل أكثر مما تستقبل، ويتجلى هذا من خلال الأرقام التي تقدمها مديرية الإحصاء.

الوافدون والمغادرون لوجدة ما بين 1975 و 1982⁽¹⁰⁾

البندية	الوافدون على وجدة	المغادرون لوجدة
البيضاء المحمدية	1.068	2.300
أرباط سلا	812	2.384
فاس	1.080	896
مراكش	206	1.008
مكناس	452	736
طنجة	108	440
تطوان	156	452
أسفي	60	152
القنيطرة	312	500
خريبكة	136	208
أكدير	244	124
المجموع	4.634	9.200

لا نسعى من وراء الجدول القيام بمقارنة بقدر ما نرغب في إعطاء صورة عن التيار المغادر للمدينة، فالجدول يظهر تبعية المدينة لمدن أخرى، ويرتبط عدم

⁽⁹⁾ - C.F.R.E.D.: L'exode rural. Traux d'evolution, profils et rapports avec les milieux d'origine. 1995

⁽¹⁰⁾ - C.F.R.E.D.: Analyses et tendances démographiques au Maroc. 1986, p. 130-149.

استقرار هؤلاء بالمدينة برغبتهم في تحسين ظروف عيشهم وكذا اندماجهم في نسق عيش يوفر لهم ظروفًا أفضل من المدينة التي غادروها ، ويجعلنا هذا نتساءل عن مدى إمكانية المدينة وقدرتها على استيعاب هؤلاء السكان ، فهذا العجز يفصح عن خلل تعرفه المدينة، ويرتبط هذا الخلل بقاعدتها الاقتصادية ووظيفتها الجهوية. وهذا العجز الذي تسجله مع المدن يعوضه العنصر الريفي أي تعويض سلوك وثقافة ورأسمال بعناصر أخرى غالبًا ما تكون لها انعكاسات سلبية على المدينة وديناميتها. ولا يقتصر العجز في العلاقات مع المدن الكبرى كما هو مبين في الجدول وإنما كذلك مع المدن البعيدة والتي يقل حجمها عن وجدة نفسها ، فعلى سبيل المثال نجد أن وجدة أرسلت لمدينة أسفي 152 فردًا في حين لم تستقبل منها سوى 60 فردًا ⁽¹¹⁾ مما يزكي أن وجدة تفقد من ساكنتها لصالح مدن أخرى. لقد سجلت عجزًا مع جميع المدن المذكورة أعلاه باستثناء مدينتي أكدير وفاس، ويعزى هذا بالأساس إلى كون هذه المجموعة تتعاطى للنشاط التجاري حيث تغزو معظم المدن المغربية.

ويقلص هذا العجز من النمو السكاني للمدينة لكن رغم ذلك يظل التيار المتوجه إليها هامًا ينزح بالدرجة الأولى من الريف وخاصة ريف المغرب الشرقي. ومما يوضح كون التيار حافظًا على كثافته هو عندما نلجأ إلى البحث عن فترات استقرار هؤلاء نجدها حديثة يطغى فيها العنصر الريفي خاصة لدى أرباب الأسر.

4.3 - مراحل استقرار المهاجرين بالمدينة

عندما نتتبع فترات استقرار المهاجرين بالمدينة نجد أن التيار يمتاز بتجديده وحدائته إذ أن معظم المهاجرين استقروا في العقد الأخير ، والجدول يوضح تاريخ توافد أرباب الأسر على المدينة:

¹¹ - LGHWTM : *Aperçu géoscopique sur l'émigration rurale dans la province de Safi* .
R.G.M., vol. 12, nouvelle série, n° 2, 1988, pp. 6-17.

تاريخ استقرار أرباب الأسر بوجدة⁽¹²⁾

النسبة	تاريخ الاستقرار
28.7	أقل من 8 سنوات
24.1	8 -- 18
21.5	19 -- 28
16.2	29 -- 38
9.5	أكثر من 39 سنة
100	المجموع

إذا كان 28.7% من أرباب الأسر قدموا في السبعينات، فهذا يبرز أولا حداثة الهجرة ، ففي ظرف ثمان سنوات أي ما بين 1986 و 1994 استقر بالمدينة أكثر من ربع أرباب الأسر ، بل إن هؤلاء لم يتوافدوا منفردين وإنما أقدموا معهم أسرهم كذلك مما يدل على أهمية الهجرة الجماعية . وإذا كان متوسط أفراد الأسرة المهاجرة هو 4.7 أفراد حاليا فقد كان أقوى في الخمسينات حيث كان المعدل 4.8 أفراد⁽¹³⁾ . ووجود 52.8% من أرباب الأسر قدموا ما بعد 1976 له ما يبرره سواء على المستوى الوطني مثل توافد المقيمين بالجزائر والهجرة الدولية ، وعلى المستوى المحلي العلاقات ما بين المهاجر وأسرته وكذا تواجد المدينة في مجال ريفي بطبيعته طارد للسكان.

وحداثة الاستقرار هذه تجعلنا نطرح عدة تساؤلات حول رغبة هؤلاء في الاستقرار النهائي أم لا، وكذا حول قابلية المدينة لاستيعابهم أم لا، إلا أن طغيان المهاجرين في المدينة له انعكاسات سلبية على التركيبة الديموغرافية للمدينة وعلى أنشطتها الاقتصادية، إذ يطغى القطاع غير المهيكل وأنشطة لا علاقة لها بالمدينة. إن قوة عدد المهاجرين وتقلص ساكنة المدينة الأصلية يجعلنا نستنتج أنها كانت تعرف ظاهرة الترفيف وبالتالي لا توفر سبل البقاء ، مما يجعلها تعرف سلوكا خاصا تطغى عليه حياة البداوة التي تتجلى في كثير من المظاهر مثل ضعف المستوى الثقافي وتنظيم المدينة وأشكال السكن ، بل إن المدينة تفتقر إلى الكثير من الشروط الحضرية رغم تاريخها ووجودها كعاصمة جهوية. ومما تعانيه المدينة هو

¹² - Recensement 1994. Dépouillement 5 %.

¹³ - KATAN; op. Cit., p. 157.

أن العنصر المهاجر يأتي أساسا من الجهة الشرقية وخاصة من أريافها مما يطبعها بطابع خاص.

4 . الإشعاع الهجري للمدينة

رافق تطور تيار الهجرة اتساع في الإشعاع ذلك أن المدينة بعدما كانت منعزلة وسط مجال ريفي تغطي عليه حياة الترحال ، وكان المزود الرئيسي للمدينة بالسكان نجد أن مجال النفوذ تطور ليتخذ بعدا أكبر وبالتالي لم تبق المدينة تستقطب المهاجرين الريف فقط وإنما كذلك مهاجرين حضر ، قدموا من معظم المدن المغربية . إلا أن مجال النفوذ لا زال مركزا بالدرجة الأولى على المنطقة الشرقية وخاصة المجال الريفي منه. ويمكن رصد إشعاع المدينة انطلاقا من الجدول التالي:

توزيع المهاجرين حسب الأصل الجغرافي⁽¹⁴⁾

نسبة المهاجرين	حضر	ريف	الأصل
71.5	34.2	65.8	الجهة
28.5	69.5	30.5	باقي الوطن
100	42.3	57.7	المجموع

4.1 - الهجرة نحو وجدة ذات بعد جهوي

إن ما يمكن استنتاجه من الجدول السابق هو أهمية الهجرة القادمة من الجهة الشرقية إذ تبلغ مساهمتها 71.5% من الهجرة الداخلية . إلا أن الملاحظات الأساسية التي نستخلصها من الشكل رقم (1) -الذي يبرز التيار الجهوي - هو تركيز مجال النفوذ في مناطق دون أخرى . والملاحظة الثانية هي أهمية الهجرة الريفية من الجهة حيث تمثل 65.9 % رغم تواجد كثير من المدن بالجهة التي تعاني أزمة بنوية وتعرف تراجعاً في عدد السكان، مثل تويسيت وواد الحيمر وبما في ذلك جرادة و فجيح، حيث يهجرها الكثير في اتجاه وجدة.

وبالنسبة للأصل الجغرافي للمهاجرين يظهر الشكل رقم (1) التباين الصارخ بين المنطقة الشمالية والجنوبية للمدينة ، فالجماعات المحادية لها تعتبر المزود الأساسي، بينما يتلاشى التيار تدريجيا في اتجاه الشمال وبشكل فجائي اتجاه

الجنوب، ويعزى هذا أساسا إلى ارتفاع الكثافة السكانية في الجماعات المتواجدة في الشمال مثل جماعة بني خالد التي تصل فيها الكثافة 40.5 نسمة في كلم²، بينما تنخفض أقصى الجنوب إلى ما دون 1 نسمة كلم² في عين الشواطر، علما أن التبليين هام بين مؤهلات الجماعات، فالجماعات الشمالية أكثر حظا من الجنوبية، خاصة فيما يتعلق بالإمكانيات الفلاحية، ومع ذلك نسجل تباينا آخر على مستوى التمدن، إذ ينعم القسم الشمالي بشبكة حضرية نشيطة سريعة التطور، مثل بركان، بينما تعاني مدن القسم الجنوبي من ركود، مثل فجيج، بمعنى أن المنطقة التي كان من المتوقع أن تحصر سكانها أو على الأقل تقلص من تيارها اتجاه وجدة هي المناطق الأكثر إرسالا للسكان، بينما تظل المنطقة الجنوبية غير محظوظة على جميع الأصعدة.

والملاحظة الثانية التي يمكن استخراجها من الهجرة الجهوية طغيان التيار الريفي على الحضري، ويمكن اعتبار هذا شيئا منطقيا بحكم حداثة التعمير في الجهة الشرقية، فالجهة بطبيعتها كانت منطقة ريفية يطغى عليها حياة الترحال ولم تبدأ حركة التعمير إلا مع دخول المعمر، فالمدن الموروثة كانت ضعيفة وعانت من التدخل الاستعماري مثل دبدو وفجيج باستثناء وجدة التي حافظت على دينامييتها. فوجدة لا تترك سوى 14% من المهاجرين الريف المجاور يتجهون نحو المدن الأخرى¹⁵، إلا أن هذا التيار عرف تطورا في أصله وحجمه واتجاهه.

4.2 - تطور تيار الهجرة الجهوي نحو المدينة

عرفت الهجرة، على المستوى الجهوي، تطورا عميقا من حيث اتجاهها وحجمها. فقد ظلت الجهة الشرقية هي التي تتحكم في قوة التيار رغم ما أصابه من تطور على صعيد المناطق المرسللة للسكان، والمقارنة بين الخمسينات والتسعينات كفيلة بأن توضح هذا التطور.

¹⁵ - KATAN; op. Cit., p. 157. AMEUR M.: Mouvement migratoire et déséquilibre régionale. L'exemple de la région de Fès. La région au Maroc. Revue de la faculté des lettres et des sciences humaines, Fès, n° spécial, 1990, pp. 85-91

الأصل الجغرافي لأرباب الأسر لبعض الدوائر خلال إحصاء 1952 و 1994 ⁽¹⁶⁾

السنة	1952	%	1994	%
الأصل	أرباب الأسر		المهاجرون	
دائرة بني وكيل	198	12.8	184	15.1
دائرة وجدة	355		697	
دائرة تاوريرت	91	22.9	218	57.4
دائرة بني يزناسن	909	5.9	115	18.0
		58.4		9.5
المجموع	1.553	100	1.214	100

رغم ما يثيره الجدول من تحفظات تبقى دلالاته سليمة لها ما يبررها، فقد حاولنا تحديد الدوائر القديمة انطلاقا من الجماعات الحالية حتى تكون المقارنة دقيقة، ويمكن استخراج ملاحظتين أساسيتين:

— تطور مساهمة دائرتي وجدة وتاوريرت بشكل هام في حين لم تعرف دائرة بني كيل سوى تطورا خفيفا.

— تراجع مساهمة بني يزناسن بشكل قوي حيث انخفضت النسبة من 58.4% إلى 9.5%.

ويعزى هذا التطور إلى كثير من العوامل ، فالتطور الخفيف الذي شهدته دائرة بني كيل يرتبط أساسا بعدم وجود مراكز حضرية نشيطة في الهضاب العليا من شأنها أن تخفف من حدة الهجرة ، فالجهاز الحضري المبعوث هناك لا يستطيع استيعاب هؤلاء مما يجبرهم على التوافد إلى المدينة. أما عن ارتفاع نسبة دائرة تاوريرت فترتبط بانفتاح المدينة على الغرب أكثر ودخول هذه الدائرة ضمن الإشعاع الإداري لوجدة، وبالنسبة لدائرة وجدة تظل المدينة تحتفظ بعلاقات قوية مع أريافها خاصة وأن وجدة هي المركز الوحيد المجاور لهذه الأرياف ، وفيما يخص تراجع بني يزناسن فقد عرف التيار تحولا في اتجاهه إذ أصبح موجه نحو الشمال بدل الجنوب ، دخلت ضمن إشعاع مدينة بركان التي عرفت تطورا سريعا واعتمدت أساسا على سكان بني يزناسن في تنشيط القطاع الفلاحي بسهل تريفية، رافق هذا ظهور شبكة حضرية فنية تستوعب السكان من هذه المنطقة . وتركز الهجرة حول الجهة لم يمنع من تطور الهجرة القادمة من باقي أجزاء التراب الوطني.

4. 3 - تطغى الهجرة الحضرية على التيار الوافد من خارج الجهة

يطغى على الإشعاع الوطني الهجرة الحضرية التي وفدت على المدينة من مختلف مدن البلاد وخاصة المناطق الغربية مثل فاس ومكناس والرباط والدار البيضاء في حين نجد باقي التيار موزعا على مختلف مناطق البلاد بما في ذلك منطقة سوس التي تعتبر من أهم المناطق إرسالا للمهاجرين مع وجود تركيز هام للمناطق المجاورة للجهة الشرقية مثل إقليم تاونات وتازة ، ويضعف الإشعاع في الوسط خاصة حول تانسيفت والأطلس الكبير والأوسط وكذا في أقصى الشمال الغربي المغربي.

إن الإشعاع الوطني متلاشي نسبيا، لكن تطغى عليه الهجرة الحضرية، وغالبا ما ترتبط هذه الهجرة بالوظائف العليا ووظائف التسيير ، ويفصح هذا التباين عن تناقض اجتماعي صارخ بين مهاجرين ريفيين يحملون كثيرا من المخلفات الريفية مما يصعب عليهم عملية الاندماج ، ومهاجرين حضر يحملون معهم مرجعا حضريا يسهل عليهم عملية الاندماج ، ويظهر تدقيق أصل التيار القادم من خارج الجهة من خلال الشكل رقم(2).

إن عزلة مدينة وجدة كعاصمة جهوية في أقصى الشمال الشرقي، جعلها تشكل قطبا للهجرة الريفية والحضرية من مختلف أجزاء البلاد مع تركيز للتيار وخاصة الريفي منه في الجهة الشرقية وتقلصه على باقي المناطق المغربية مع طغيان للتيار في مناطق دون أخرى وأهميته الحضرية.

إن هذا التباين في الأصول الجغرافية، سواء كانت جهوية أو وطنية، ريفية أو حضرية ، ينعكس على المدينة ويخلق نوعا من التباين في السلوك وفي إمكانية الاندماج وفي المستويات الاقتصادية والاجتماعية للسكان مما يؤثر سلبا على سير المدينة وحركتها الاقتصادية ويؤثر في تنظيم المدينة . فعلى مستوى السكن يصطدم الإنسان بتناقض صارخ بين سكن رفيع ، يتضمن مختلف عناصر الراحة ، وسكن من الخيام ، مرورا بجميع أنواع السكن.

5 - آفاق الهجرة نحو وجدة

ليس هناك مدينة في المغرب تتأثر بالأحداث السياسية والطبيعية مثل مدينة وجدة، فبمجرد أن تفتح الحدود أو تغلق يظهر أثرها واضحا في نشاط المدينة وديناميتها، فتتجزع مشاريع وتنشط الهجرة ، وهناك عنصر الجفاف، ليس هناك أكثر تضررا منه مثل قبائل الترحال حيث تجد في وجدة الملجأ الأساسي لاستقبالهم، وإذا

الأولى استراتيجية يحركها مبدأ تحسين الدخل، ففي الحالة الثانية تكون اضطرارية يحركها ميكانزم أزمة الأرياف وأزمة المجال الشرقي بصفة عامة

إن الهجرة ظاهرة دائمة ومستمرة، لكن يمكن أن يقع عليها تطور من حيث الأصل الجغرافي ، فمما لا شك فيه مستقبلا هو تراجع التيار الهجري الجهوي الريفي أمام تطور وظهور بعض المراكز النشيطة مثل المجموعة البركانية والمجموعة الناضورية وكذا أمام تقلص عدد سكان الأرياف ، إلا أن التيار الوطني سترداد حدثه أمام تطور المجتمع المغربي ، شأنه في ذلك شأن جميع المجتمعات. فحدة الهجرة الريفية ستراجع، وستتطور الهجرة الحضرية، خاصة وأن المدينة ستصبح ذات يوم بوابة المغرب العربي.

ستراجع نسبة النمو السكاني بالمدينة نتيجة تراجع التيار الهجري من جهة وانخفاض نسبة النمو الطبيعي، قد لا تتعدى نسبته 25 % سنويا انطلاقا من 1994. وبمقابل هذا تتطور الهجرة المضادة كما أشرنا سابقا ، وهذه ظاهرة واضحة بحيث أن أبناء المدينة يفضلون الاستقرار في مدن أخرى وخاصة في الساحل الأطلسي، ويعزى هذا إلى تواجد المدينة على الهامش بعيدة عن مراكز القرار من جهة، ونظرا لكونها لا توفر نفس الامتيازات الموجودة في مدن أخرى.

تطور عدد المدن وتزايد سكانها سيقص من أهمية التيار إلى وجدة، فعندما نعود إلى عقد الخمسينات نلاحظ أن الجهة تتوفر على هذه الشبكة من المدن والتي شهد بعضها تطورا ضخما يفوق مدينة وجدة نفسها وأخص بالذكر مدينتي الناضور وبركان، هذه المدن عكس مدينة وجدة تتوفر على قاعدة اقتصادية صلبة، إما نشاط فلاحي متطور أو بنية صناعية ضخمة، إضافة إلى مواقعهما في مجالات بها كثافة سكانية هائلة مثل الريف الشرقي و بني يزناسن، ويحيط بهما عدد من المدن الصغرى والمتوسطة تتميز بفتوتها وتمدنها السريع، وهذا سيقص من أهمية التيار نحو وجدة خاصة الوافد من المناطق المجاورة لهذه المدن، وسيقتلص كذلك إشعاعها في الجنوب الشرقي الذي يعاني من قلة الكثافة السكانية، مع العلم أن ظهور شبكة من المراكز الصغرى مثل بني تجيت وبوعنان ساهمت في توطيد السكان بأمكانهم، و سيؤثر هذا بشكل واضح في أهمية التيار بجعله ينحرف عن اتجاهه نحو وجدة أو بتشجيعه على البقاء بعين المكان.

تشبع المدينة بعدد السكان بحيث أن إمكانياتها لا تسمح لها باستيعاب أكثر، ويرتبط هذا بضعف بنيتها التحتية ، ورغم كونها قطبا جهويا تظل وظيفتها مبتورة بحكم انعدام مشاريع تنموية حقيقية.

تراجع طبيعة التيار لأن العديد من الجماعات القروية المزودة للمدينة تقلص عدد سكانها، على سبيل المثال فجماعة تافوغالت زودت المدينة بـ 95 رب أسرة من بين 444.2، وجماعة رسلان تراجع عدد سكانها من 9.238 سنة 1971 إلى 6.008 سنة 1994. وكيفما كانت محدداتها وأصولها وحجمها، فالهجرة تنقل الفرد أو الجماعة من مجال مغلق نسبيا إلى مجال أكثر انفتاحا، والهجرة الريفية نحو المدينة تجعل الفرد يتعرف على نمط حياة مختلف، له محتوى جغرافي خاص من حيث الأنشطة والعلاقات الاجتماعية. ومدينة وجدة تساهم في تمرير هذا التحول لدى المهاجر من جهة، ومن جهة أخرى تلعب دورا في التخفيف من حجم التيار المتجه نحو المناطق الغربية وبالتالي الحفاظ على نوع من التوازن في التوزيع السكاني.

شكل رقم 1 : الهجرة الى مدينة وجدة من الجهة الشرقية



